العرب وبعض مآثرهم

خلاصة تاريخية

ما لبث الاسلام ان اخذ ماخذهُ من العرب حتى انضمت قبائلهم عصبةً قوية وزحفوا على ما حولهم فدوخوا جزيرة العرب ومصر وافريقية وبلاد فارس وسورية وملكوها بحد السيف من بلاد الهند الى شواطئ الاتلانتيكي في مئة سنة من الزمان. واشتدت فيهم محمة الفتوح فامتطوا متن اللجج واجروا على بلاد القوط الاسنّة ففتحوا الاندلس على يد موسى بن نصير ومولاهُ طارق بن زياد في خلافة الوليد بن عبد الملك وجعلوها "ميداناً لسبق الجياد ومحطّ رحال الارتياد والارتياد" وضايقوا اهلها النصارى وانشأوا لانفسهم على عماد الفخر والمجد مملكة عزّ في زمانها نظيرها وفاح بالعلم عبيرها حتى لم يزل مؤرخوها يأسفون عليها ويودّون لو اتيحت لهم الأوبة اليها. ولم تزل سورة الفتوح والحرب تلعب في رؤوس العرب وافئدتهم تسعى الى الغنية والسلب حتى قام الخليفة المنصور سنة ٧٥٤ للمسيح فانشأ بغداذ دارًا للعلم ومقرًّا لاصحاب المعارف والفنون وادخل الطب الى قومهِ عن يد يخبشوع الطبيب المسيحي. ثم لما تولى الخلافة حفيدهُ هرون الرشيد ابدى في العلم رغبةً فائقة حتى كان لا يخرج الاّ في مئة من العلماء ورفع منار المعارف في بلادهِ وقرّب اليهِ اهلها ووضع لشعبهِ احكامًا حسنة كوجوب اقامة مكتب بجانب كل جامع فسرى العلم في مملكتهِ وبدّل روح اهلها واستمالهم الى اتقان حال الحضارة. ثم لما خلفهُ ابنهُ المامون زهت بخلافتهِ العلوم وابتعث حدائق المعارف فبعث العلماء الى الاقطار وجمع من كتب اليونان كلّ ما طالت يدهُ اليهِ ثم استخلص نفاوتها وامر بترجمتهِ وتوزيعهِ على اهالي بلادهِ وشغف بالعلم كل ابائهِ ولم يكن يجالس الاّ العلماء ولم يألُ جهدًا عمرهُ عن جمعهم اليهِ حتى انهُ بذل لتاوفيلس ملك القسطنطينية مئة وزنة من الذهب على ان يبعث اليهِ بالرياضي الشهير لاون (ليو) فابى وغلّظ له الجواب

ولما فتح العرب الاندلس تولاها عشرون والياً كان يفيهم خلفاء دمشق او عمالهم بافريقية من غير موارنة ولم يتجاوزوا في السمة لفظ الامير وقضوا في الحرب والفتوح جلّ زمانهم ولكن بعضهم عنوا بترقية اسباب الرفاهة كالسمح بن مالك الخولاني فانهُ كان عالمًا بطرق الفلاحة والسقي على اصطلاح اهل مصر واشور وغيرها من بلاد المشرق وكتب للخليفة كتابًا بديعًا مستوفيًا وصف الاندلس وذكر فيهِ تدبير تربية غلاتها وتعميم فوائد استعمالها. ولم يصفُ كاس راحة البلاد ولم تبلغ الاندلس زهوتها الاّ في زمان دولة بني امية (من سنة ٧٥٦ الى سنة ١٠٣١ للمسيح) وكان سرير خلافتهم بقرطبة وفي ايام سلاطين غرناطة (من سنة ١٢٣٢ الى سنة ١٤٩٢) وقام بين خراب قرطبة وقيام غرناطة ممالك عدة زهت فيها اشبيلية وبلنسية وطليطلة وسرقسطة وغيرها وانما كانت

ممالك صغيرة جرّ عليها الدمار ذلا ذله تحزّب اهاليها وانتشاب الفتن بينهم ولم يكن للعلم فيها مقرّ راسخ ولا امتاز اهلها امتياز من سبقهم بقرطبة او تلاهم بغرناطة. اما مملكة غرناطة فما انحلّت الاّ من انقسام اهلها ايضاً ولو لم يضعف فيها فريق فريقاً ما قوي عليهم اهل اسبانيا. قيل انه لمّا حاصر فرديننند وايزابلاّ امراته مدينة غرناطة بستين الف بطل محنّك كان فيها من اشراف الاندلسيين خمسة آلاف رجل ثم لما فتحاها لم يجدا منهم الاّ ثلث مئة والباقون اقتتلوا حتى قتل بعضهم بعضاً

فلما وقعت غرناطة بيد اهالي اسبانيا ذلّ العرب فيها ورحل منها نحو الفي الف نسمة منهم والباقون لبثوا فيها حتى طردهم الملك فيلبس الثالث فبارحوها وكان عددهم ست مئة الف نسمة من صفوة اهل اسبانيا واسماهم همّة واكثرهم اجتهاداً وادقهم صنعةً حتى لم يبقَ فيها بعدهم من يحسن القيام باعمالها فضعفت وانحلت وافقرت من فراقهم رياض الاندلس اليانعة وقلّ سكانها فمن بعد ان كان في قرطبة الف الف نسمة ايام بني امية لم يبقَ بها الآن اكثر من اربعين الفاً. ومن بعد ان كان بطليطلة مئتا الف نسمة لم يبقَ بها الآن ثلثة عشر الفاً. ومن بعد ان كان باشبيلية ثلث مئة الف في القرن الثاني عشر لم يبقَ بها الاّ تسعون الفاً. ومن بعد ان كان بغرناطة اربع مئة وخمسون الفاً في القرن الرابع عشر لم يبقَ بها الآن الاّ نحوٌ من ثمانية آلاف. وانقرض ملك العرب من الاندلس بعد ثماني مئة سنة من افتتاحها ثم تحوّل العلم عنهم الى غيرهم كما سترى

هذا ملخص تاريخ الاندلسيين ولا تستوفيه الاّ المجلدات الضخمة. وقد شرع الشاب اللبيب سليم افندي شحاده في تاليفه ونشره في المشكاة والرجاء انه سيكون كتاباً جليلاً عميم الفوائد جديراً بمطالعة الطلاّب ومحبي المعارف. اما مضمون هذه النبذة فهو ذكر شيء من مآثر العرب ولا سيما الاندلسيين والتلويح الى علومهم بوجه الاختصار فنقول

اعتمد علماء الافرنج ان يعقدوا في المعرض الآتي مجمعاً للبحث عن اللغات الشرقية ولا سيما اللغة العربية وقد بعث الينا العلاّمة رينو استاذ اللغة العربية بمدرسة مرسيليا الكلية رسالة يذكر فيها ان من المواضيع التي تجري المباحثة فيها حينئذٍ وجوب مطالعة كتب العرب لاظهار ما نفعوا العالم به وما اخطأوا فيه من العلوم فلا جرم ان ذلك سيكون مهمازاً يلعب في شاكلة ابناء هذا الزمان من كل من ينطق بالضاد فامّا يعثرون فيستطون او يجلون في طلب العلم حلةً واحدة فينجحون ولكن التخمين ليس من موضوعنا فلنرجع الى ما نحن بصدده. مهما كشف علماء الافرنج من معارف العرب فلن يكشفوا الاّ بعضاً منها ليس لان العرب فاقوا غيرهم في العلم او في الاكتشاف فانّا لا ننكر (ولو انكر غيرنا) ان العرب تلقفوا اكثر علومهم عن اليونان والتاريخ يشهد وكتبهم تؤيّد الشهادة انهم نقلوا عن ارسطو كثيراً من المنطق والادبيات وما فوق الطبيعة وعن جالينوس وابقراط الطب وعن

ديوسكوريدس النبات وعن ابولونيوس واقليدس وغيرهما الهندسة والاكر وانما السبب الذي يمنع من كشف علومهم هو اضمحلال كتبهم وملاشاة اكثر ما تركوا حتى لم يبقَ بعدهم الاَّ القليل . ليقل لنا اهل اسبانيا اين الثمانون الف كتاب التي امر كردينالهم شيمنز بحرقها في ساحات غرناطة بُعَيد استظهارهم عليها فاحرقوها وهم لا يعلمون ما يعلمون حتى افنوا على ما قال مؤرّخهم رُبلس الف الف وخمسة آلاف مجلّد كلها خطتها اقلام العرب . وليتهم يخبرون كم من كتاب لعبت به نيرانهم بعد ذلك حتى لم يبقوا من معارف العرب ولم يذروا . وما يقولون عن السفر الثلث التي ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبة ديار سلطان مراكش فسلبوها والقوا كتبها في قصر الاسكوريال الى سنة ١٦٧١ حين لعبت بها النيران فاكلت ثلثة ارباعها ولم يستخلصوا منها الاَّ الربع الاخير . حينئذٍ استفاقوا من غفلتهم وعلموا كبر جهالتهم ففوضوا الى ميخائيل القصيري الطرابلسي الماروني ترتيبها وكتابة اسمائها فكتب لهم اسماء ١٨٥١ كتابًا منها . فعلى ما في هذه الكتب وما بقي في افريقية والمشرق قصر اهل هذه الايام معارف العرب وحتى هذه لم يستوعبوا جميع ما فيها والرجاء ان اجتماعهم في هذا المعرض يجبر ما نقص منّا ومنهم في الاجيال الغابرة

هذا ولمّا نزعت نفوس العرب الى الاشتغال بالعلم واحراز المعارف انشأوا لها المدارس وجمعوا اليها العلماء وكانت اشهر مدارسهم ببغداذ والبصرة وبخارا في الشرق والاسكندرية والقاهرة في مصر ومراكش وفاس ببلاد البربر وكان بمدرسة بغداذ في القرن الثاني عشر ستة آلاف شخص من معلّم ومتعلّم وكان بالقاهرة وحدها عشرون مدرسة سنة الالف للمسيح وبقرطبة وحدها في بلاد الاندلس ثمانون مدرسة في خلافة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر . واصبحت الاندلس في ختام القرن الحادي عشر ذات سبعين مكتبة محشوكة بكتب اهلها ومدرسة كبرى جامعة في كل كورة ومدارس متعددة في سائر مدنها . وحصيوا في سنة ١٢٦ انهُ قام من قرطبة وحدها مئة وخمسون مؤلّفًا ومن مالقة ثلاثة وخمسون ومن المرية اثنان وخمسون ومن برشقال خمسة وعشرون ومن مرسيه واحد وسبعون عدا عمّن قام من اشبيلية وغرناطة وبلنسية وغيرها من المدن وقال بعض مؤلفي العرب قام من العرب الف وثلث مئة مؤلف في التاريخ فقط . ويتبيّن لك حب الاندلسيين للعلم من قول المقري فيهم وهو

واما حال اهل الاندلس في فنون العلوم فمحقق الانصاف في شامهم في هذا الباب انهم احرص الناس على التميز . فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد ان يتميز بصنعة ويرتاد بنسبٍ ان يرى قارفًا عالة على الناس لان هذا عندهم في غاية القبح . والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار اليه ويحال عليه وينبه قدرهُ وذكرهُ عند الناس ويكرم في جوار او اجتماع حاجة وما اشبه ذلك . اه

وبلغت الاندلس قمة النجاح في سلطنة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر في القرن الحادي عشر وتعشق الحكم المعارف وبعث الى افريقية وبلاد فارس ومصر وبلاد العرب يشتري

الكتب او نسخها اذا لم يتهيأ له ابتياعها . وكتب بنفسه الى مؤلفي زمانه يطلب منهم كتبهم واجازهم عليها خير الجزاء حتى جمع على ما يقال اربع مئة الف مجلد او ست مئة الف على قول البعض . وكان شديد العناية باجازة العلماء وبمكتبته . ولكنها لم تعش طويلاً . روى سعيد بن احمد ان المنصور اتلف اكثرها وما لم يتلفه منها تلف او تشتت ايدي سبا عند انتشاب الفتنة وسقوط خلافة بني أمية .

ستاتي بقيتها

معامل الورق * قرّر بعضهم في جمعية ايدنبرج الصناعية ان عدد معامل الورق في بريطانيا ٤٨٥ وفيها ٥٢٦ آلة بخارية وتصنع في السنة ١٤٠٠٠٠٠٠ قنطار وان اضفنا الى ذلك ٤٠٠٠٠٠٠ قنطار ما يصنع بالايادي كان كل الورق المصنوع في بريطانيا سنوياً ١٤٤٠٠٠٠٠ قنطار وثمنها ٣٠ مليون ليرا انكليزية . وقرّر ان معدل ما يصرفه الروسي من الورق في السنة ليبرة واحدة والاسبانيولي ليبرة ونصف والمكسيكي ليبرتان والايطالي خمس ليبرات وكذا النمساوي . والفرنساوي سبع ليبرات والجرماني ثماني ليبرات والاميركاني من الولايات المتحدة ١٠¼ والانكليزي ١١½

فوائد من اقلام المراسلين

بطل السحر * لا اعلم ما الذي انساني ان اخبركم باني اخذت مقالتكم ضد السحرة المدرجة وجه ٣٨ من السنة الثانية وقصدت بها الساحر المشار اليه فيها وبعد ان خيرته في الاقرار او الشكاية عليه لانه اتهم غيره من الابرياء اقرّ بانه لا يعتقد بشيء من سحره وبانه انما يستعمل تلك الصناعة الكاذبة ليتعيش بها (نقولا غرّ في دمشق)

تكذيب خرافة * غرسنا اشجاراً كالليمون والتفاح منذ سنين بدون مراعاة الهلة والنقصة فلم نرَ فرقاً في نموها وثمرها ضدّاً لما يزعمه الناس (جرجي بني في طرابلس)

دواء لداء الثعلب * يُحفّ مكانه بخرقة خشنة حتى يحمرّ جدّاً ويكاد الدم يظهر ثم يُدهن بمزيج من دم الحرذون وعرق وبارود وقد جُرّبت امامنا فصحّت (حبيب الحداد)

[المقتطف] علمنا فائدة الحف والدهن بالعرق والبارود واما دم الحرذون فلا ندري ما فائدته

حبر سرّي * اذا كُتب بعصير البصل الني لا تظهر الكتابة ما لم يحمَّ القرطاس (خليل سعد في راس المتن)

طعّمنا الورد بانواع مختلفة وكذلك الليمون فصحّت جميعها وصار كل فرع منها نوعاً وتعددت ازهارها واثمارها الواناً واشكالاً (بوحنا الخوري)